تواتر لفظ "اللسان" في القرآن الكريم
-الدلالة والوظيفة-

محمد بن عمار مباركي*

الملخص

عالج هذا البحث إشكالية مطروحة منذ القديم وهي لفظ اللسان الذي يمثل السلوك البشري في تصرفاته الكلامية والتعبيرية؛ إذ هو معيار التمييز بين لغة وأخرى، كما تطرَّق البحث إلى الغموض الذي ساد في أوساط الدارسين العرب فيما يخص اللغة واللسان، في الوقت الذي أُدرِكَ بسهولة عند الدارسين الغربيين عندما غاصوا في عمق اللغة ووصفوها كما هي لا كما يجب أن تكون.

ورد تواتر لفظ اللسان في القرآن الكريم بدلالاته جميعها، وقد تجلى هذا في النصوص الكثيرة مما يرفع اللبس ويعطي للأمر قوة وصلابة؛ وقد قدمنا الأدلة من القرآن الكريم وأقوال أهل الدراية باللغة، كما ذكر البحث خصائص اللسان العربي كبنية صوتية وتركيبية ودلالية واقتصاد لغوي؛ ويؤكد ذلك بدائية نشأة هذا اللسان المؤهل لتأدية الأصوات جميعها وتكرارها بمجهود عضلي مريح دون عناء ولا مشقة وذلك باختيار الوسائل الفونيمية المترابطة التي تشكل الانسجام الصوتي وهو ما تصوره العرب من قبل وأقره علماء اللغة الغربيون -كنظرية مستقلة- وعلى رأسهم أندري مارتينيه.

* كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية – جامعة تبسة - الجزائر

ونظراً إلى أن اللغة هي لسان حال الأمم الذي ورد على معانٍ عدة فقد تناول هذا العضوَ (الكلامي) بمعانيه السابقة كلٌّ من المفسرين والفقهاء وأهل اللغة قدماء ومحدثون.

تقديم:

إن اللسان هو تلك الصورة من السلوك السوي لدى الأغلبية العظمى من أبناء الأمة الواحدة؛ فلسان كل أمة من أمم الأرض يشمل عدة لغات، واللغة في حد ذاتها تتألف من كلام فرد؛ فاللسان العربي مثلاً يتضمن عدداً من اللغات؛ فهناك لغة قريش وتميم ولغة أهل الحجاز... الخ. واليوم نرى أن اللسان له وضعيات بحسب الأقطار؛ إذ نستطيع تمييز لغة أهل الشام عن لغة أهل مصر عن لغة أهل المغرب.

وعندما يتصل الأمر بتعريف علم اللغة عند المحدثين نلاحظ أن مصطلح "اللسان" يمكن استخدامه عندما نريد التعبير عن لغة معينة، ويمكن أن يحل محله التعبير بمصطلح "اللغة"، فنلاحظ أن مصطلح "اللسان" قد ظهر عند قدامى اللغويين بمعنى "اللغة"، فاللسان في اللغة جارحة الكلام وقد يكنى بها عن الكلمة فيؤنث حينئذٍ وقد يذكر على معنى الكلام قال "ابن سيده": اللسان اللغة لا غير واللِّسن بكسر اللام اللغة، اللسان، الرسالة[1].

أولاً: غموض اللغة واللسان عند الدارسين العرب

إذا كان الدارسون الغربيون لا يجدون أي إشكال لإدراك البعد العلمي والمنهجي بين Language، tongue في لغاتهم فإننا نحن -الدارسين العرب- اليوم نجد صعوبة التمييز بين هذين المصطلحين، فالعرب الخلص لم يكونوا يستعملون كلمة لغة في كلامهم، وإنما كانوا كغيرهم من الأمم السابقة يطلقون كلمة لسان على اللغة، وهكذا يطّرد الأمر في القرآن الكريم، يقول تعالى: "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُون إِنَّمَا يُعَلِّمُه بَشَرٌ لِسَانُ الّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِين"[2]، ويقول

1 شرف الدين الراجحي، علم اللغة عند العرب ــ رأي علم اللغة الحديث ــ دار المعرفة الجامعية، دط، سنة 2007، ص 12.

2 النحل الآية:103.

تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم.." [3]

ويقول أيضاً: "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُم..."[4]

فاللسان هو عضو للذوق وعنصر من عناصر الجهاز الهضمي والنطق معاً، أمَّا اللغة فقد تترجم كلاماً يحمل معنى الخطاب الصامت أو المسكوت عنه.

قال الشاعر: إِنَّ الكَلاَمَ لَفِي الفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الفُؤَادِ دَلِيلاً

وقد ساد مصطلح اللسان في الدراسات اللغوية القديمة؛ ومما هو معلوم أن "فَعَال" بفتح الفاء أو ضمها أو كسرها ومثلها "فعِل" إن دلت على مؤنث كان جمعها "أفعل" (لسان ألسن) وإن دلت على مذكر كان جمعها "أفعلة" (لسان ألسنة) وذكر "أبو حاتم" أن التذكير فيه أكثر؛ ولذلك جاء في القرآن كلّه مذكراً، وكذلك جاء جمعه في القرآن عشر مرات على وزن "أفعله"[5]، وإذا ما أتى اللسان، وهو في الغالب مذكر، فإنما يؤنث على الحمل أي على معنى الرسالة والقصيدة، قال الفراء: "لم أسمع اللسان العربي إلا مذكراً" وقال أبو عمرو بن العلاء: اللسان يذكر ويؤنث.

وقال الشاعر بأن اللسان يحمل معنى اللغة:

أتتني لسانُ بني عامرٍ أحاديثُها بعد قولٍ نُكُرْ [6]

ومثله قول الآخر:

إني أتتني لسانٌ لا أُسرُّبها من علوَ لا عجبٌ منها ولا سخَرُ

---

3 إبراهيم من الآية 4.

4 الروم من الآية 22.

5 النحل 62، 116، النور 15، 24، الروم22، آل عمران 78، الممتحنة 2، النساء 46، الفتح 11، الأحزاب 19.

6 حسن ظاظا، اللسان والإنسان، دار القلم، دمشق الدار الشامية، بيروت 1410هـ1990م، ص120.

وواضح في البيتين أن الرسالة التي يتحدث عنها الشاعر لم تكن رسالة مكتوبة وإنما شفوية يحملها متكلم عن مرسلها، لذا قال اللغويون: "اللسان المتكلم عن القوم" وإننا لا نجد شاهداً واحداً على استعمال العرب لكلمة لغة بهذا المعنى العلمي الذي نعنيه والتي تردد الشاعر في ضبط جمعها فإننا نقول إن أصلها يوناني، وقد كان "هيروقليدس" الفيلسوف اليوناني القديم يقول:" لست أنت الذي تتكلم وإنما "اللوغوس" هو الذي يتكلم فيك؛ ذلك أن اللغة ليست مجرد ألفاظ وتركيب يستخدمها الإنسان في التعبير عن ذهنه، وإنَّما هي -إلى جانب ذلك- تسلسل ثقافي للمعطيات التاريخية التي تتكون منها الأمة، ومن أجل هذا فقد كانت اللغة فوق كل تصنيف فوقي أو تحتي للبُنى الاجتماعية، فالمعنى واحد عند العرب وغيرهم من الأمم لكن الوعاء اللفظي يختلف فقد تكون هناك « logos » وهنا لغة باختلاف صوتي طفيف[7]. وذكر المختصون من استعمالاتها في اليونانية: الوحي أو الحكم أو الحكمة أو المثل أو المثال أو القصة أو المقالة أو القضية المنطقية أو التعريف أو التفكير..الخ[8].

ثانياً: اللسان في التراث العربي

حتى نكون منصفين لا بدَّ أن نثير ثلاث قضايا: اللسان واللغة والكلام، ونسوق شهادات على ذلك:

1- قول يونس بن حبيب: "أول من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه إسماعيل بن إبراهيم.

2- وقول ابن سلام الجمحي: "ولكن العربية التي عني بها هي اللسان الذي نزل به القرآن، وما تكلمت به العرب على عهد النبي – صلى الله عليه وسلم -، وتلك عربية أخرى غير كلامنا هذا"[9]، وقد استعمل هذا المصطلح بعض القدامى العرب.

7 نص بعنوان "اللغة وعاء الحضارة" مسابقة الدخول إلى المركز الوطني لتكوين الإطارات بالجزائر، دورة 1992 مقتطف من محاضرة لسليمان الخش.

8 حسن ظاظا، مرجع سابق، ص 121.

9 نفسه، ص 121.

يقول الفارابي (ت 350هـ) في كتابه إحصاء العلوم: "علم اللسان ضربان، أحدهما: حفظ الألفاظ الدالة عند أمة ما، وهو علم ما يدل عليه شيء منها، وثانيهما علم قوانين تلك الألفاظ[10].

وذكر "ابن سيده" في مقدمة معجمه " المخصص" عن (علم اللسان) فقال: "إن علم اللسان يقوم على أمرين أولهما: الإحاطة بمفردات اللغة ومعرفة دلالتها، وثانيهما: معرفة قواعد اللغة التي تتعلق بالمفردات من قبيل اشتقاقها وصيغة بنائها وما يطرأ على بنيتها من تطورات صوتية أو تغييرات تقتضيها قوانين اللغة المعينة"[11] فقد اتفق الفارابي وابن سيده في عنصرين أساسيين هما: دلالة الألفاظ والقوانين التي تتحكم في بنيتها.

ثالثاً: خصائص اللسان العربي

ويمكن ضبط هذه الخصائص في الآتي:

الخاصية الأولى: مستويات بنية اللسان العربي: يشتمل النظام اللغوي للسان العربي على ثلاثة مستويات هي:

1) المستوى الصوتي: وتمثله البنية الصوتية للكلمة المفردة ويرتبط بالمستوى الصوتي نظام الكتابة الذي هو وسيلة لتسجيل الصوت.

2) المستوى الإفرادي للكلمات: وله جانبان متلازمان:

أ- البنية الصوتية للكلمة ويختص بدراسة أوزانها "علم الصرف"

ب- البنية الدلالية للكلمة ويختص بدراستها "علم المعجم"

3) المستوى التركيبي للكلمات: وله جانبان:

10عبد الجليل مرتاض، اللغة والتواصل، دار هومة للنشر والتوزيع، دط، 2007، ص 4.

11 المرجع السابق، ص 43.

أ- التراكيب غير الإسنادية ويختص بدراستها "علم النحو" في بعض أبوابه كبابي (المجرورات والتوابع)

ب- التراكيب الإسنادية (الجمل) ويختص بدراستها علم النحو وعلم المعاني بسبب اشتراك علم النحو وعلم المعاني في دراسة الجملة، ويرجع إلى جانبين متلازمين هما:

- جانب المبنى ويمثل البنية الصوتية للجملة
- جانب المعنى الذي يحتل البنية الصوتية للجملة[12].

الخاصية الثانية: بنية اللسان العربي

نصف لسانا ما بالأصالة ونقصد به توافر عنصرين هما الإيغال في القدم من ناحية والاستمرار في الحياة من ناحية أخرى، وعليه فإن بنية اللسان الأصيل بهذا المعنى يجب أن تتوافر على جملة خصائص من حيث المفردات والأصوات والصيغ والتراكيب، وأول قرينة على إيصال لسان ما في القدم هي وجود شبه بين ألفاظه وأصوات الحيوان والطبيعة؛ لأن هذا الشبه يدل على محاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة والحيوان كخرير المياه وحفيف الأوراق ودوي الرعد وزقزقة العصافير وفحيح الأفاعي وخوار البقر.. الخ ويؤكد لذلك بدائية نشأة ذلك اللسان المؤهل لتلقي تلك الأصوات وتكرارها.

وعليه فإذا كان اللسان العربي أصلاً قائماً بذاته فإنه من الثابت أن اللغات الفرنسية والإسبانية والإيطالية حصلت من تحول اللغة اللاتينية إلى تمثلات أخرى نطلق عليها باللهجات دون مستوى اللغة، وكان ذلك بتأثير عوامل سياسية واجتماعية، وعليه فليست العلاقة بين المعنى واللفظ في اللسان العربي على مثال العلاقة بينهما في اللغات الحديثة؛ أي علاقة اصطلاحية بمعنى أن اللفظة تشير إلى معناها إشارة فقط

12 عمار ساسي، اللسان العربي وقضايا العصر، رؤية علمية في الفهم والمنهج والخصائص والتعليم والتحليل، عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع، إربد الأردن، 2007 ص 43.

غير أن اللسان العربي ذو بنية عضوية تتم فيه الكلمة عن المعنى وتوحي بـــه إيحـــاء حتى أن اتجاه المعنى هو الاتجاه المتغلب على اللفظة؛ ممـــا يجعـــل صـــاحبه أكثـــر استعداداً من غيره لفهم الأخلاق والديانة، فاللسان العربي بهذا المفهوم منظومة صوتية تعبّر عن وجهة الأمة التي أنشأته ودلت عليه.

الخاصية الثالثة: الاقتصاد اللغوي

وهو المجهود العضلي الذي بكونه ميسّراً لإخراج الأصوات دون عناء ولا مشقة وبعبارة أخرى إنَّ النظام الصوتي للغة العربية يقتضي اختيار الوســـائل (الفونيميـــة) المترابطة والمكونة نسيجاً واحداً[13].

الخاصية الرابعة: الصوت والمعنى في اللسان العربي.

الأصـــوات فـــي علـــم اللغـــة الحـــديث قـــسمان: صـــائتة (Vowels) وصـــامتة (Consonnants) فالصائت هو ما كان النفس الذي يؤدي إلى إصداره يجري طليقـــا لا يعترضه عائق حتى خروجه بحرية من الفم مثل صوت (A) أو (O)، والصامت هـــو ما صادف النفس الذي يؤدي إلى إصداره عائقاً في نقطة ما يعتـــرض طريقـــه حتـــى خروجه من الفم كالصوت (L) و(P)، وفي العربية يستخدم مصطلح (الحرف) للدلالـــة على شكل الكتابة والإشارة إلى الصوت، وهذا بخلاف نظرة علم اللغة الحديث الـــذي يستخدم الحرف للإشارة إلى شكل الكتابة(Graphem) والصوت (Phonem) إلى كيفية النطق.

والآن فما الصوت في اللسان العربي؟

يعرف أبو الفتح ابن جني الصوت تعريفاً دقيقاً ما زالت الدراسات اللغوية الحديثـــة تستند إليه وتعتمده لدقته وعلميته؛ إذ يقول: "اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلاً حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنية عن امتداده واستطالته،

13 المرجع السابق، ص 44.

فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً.."، ومعنى هذا أن الصوت عند ابن جني ليس حدثاً إنَّما هو عرض لحدث؛ إذ الحدث هو النفس القائم عليه حياة الإنسان فالنَّفَس أصل والصوت تبع وعرض؛ فمن هذا فكل من الصوت والحرف على الجانب الملفوظ والمنطوق من الكلام، ومن هذا ظهرت الدقة عند ابن جني في تحديد مفهوم مصطلح الصوت، وبعده يأتي الصائت إما فتحة فينتصب الصوت، وإمَّا ضمة فيرتفع، وإمَّا كسرة فينخفض[14].

رابعاً: بين اللسان واللغة واللغو

1- اللغة أداة اتصال بين أفراد المجتمع يتكلمونها وغايتها الإبلاغ بوضوح عن خبر ما أو شرط ما أو طلب ما، والأصل في الكلام أن يوضع في الفائدة كما يقول تشومسكي[15]. على عكس اللغو الذي هو المتكلم بالرفث فتقول لغا فلان يلغو تكلم باللغو وهو يلاغي صاحبه، ومن المجاز لغى عن الطريق وعن الصواب مال عنه[16].

فاللغة "اللسن"، وحدها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم، وهي "فُعْلة" من لغوت أي تكلمت، أصلها لُغْوه ككرة ووثبه، وقيل: أصلها لغِي أو لغُو، والهاء عوض وجمعها لُغًى مثل بره وبرى، قال أبو سعيد: "إذا أردت أن تنتفع بالإعراب فاستلغهم" أي اسمع من لغاتهم من غير مسألة قال الشاعر:

وإني إذا استلغانيَ القومُ في السُّرى برمتُ فألفوني بسرك أعجما[17]

14 نفسه، ص 50، 51.

15 تمام حسان، الخلاصة النحوية، عالم الكتاب، ط1، 2000 م ص 15.

16 ينظر الزمخشري، أساس البلاغة، مكتبة لبنان، ناشرون، ط1، 1998 مادة (ل.غ.و) ص744

17 اللسان (لغا) المرجع اغلسابق، ص 410، 411.

وقد عرفها ابن جني (ت 392 هـ) بأنها: "أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم "وهذا التعريف اعتمد عليه كثير من علماء اللغة قدامى ومحدثين، فهذا ابن خلدون (ت 808 هـ) يقول: "اعلم أن اللغة هي المتعارف عليه، هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد لإفادة الكلام"، وذاك ابن الأكفاني (ت 749 هـ) يقول: "وهو علم نقل الألفاظ الدالة على المعاني المفردة وضبطها، ونميّز الخاص من الدخيل فيه، وبيان الألفاظ المتباينة والمترادفة والمشتركة والمتشابه، وطلاقة العبارة والتمكن من اليقين في الكلام وإيضاح المعاني القصصية والأقوال البليغة"[18].

2- اللغو:

أ- لغة: قال الأصمعي (ت 215 هـ): "ذلك الشيء لك لغو ولغا ولغوى وهو الشيء الذي لا يعتد به" وقوله عز وجل "لاَ يُؤَاخِذُكُمْ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُم"

اللغو في الأيمان ما لا يعتد عليه القلب مثل قولك: لا والله، وبلى والله..

قال الفراء: " كأن قول عائشة إن اللغو ما يجري في الكلام على غير عقد قال وهو أشبه ما قيل فيه بكلام العرب ".

قال الشافعي: "اللغو في لسان العرب الكلام غير المعقود عليه وجماع الأمة هو الخطأ إذا اللجاج والغضب والعجلة، وعقد اليمين أن تثنيها على الشيء بعينه أن لا تفعله فتفعله، أو لتفعله فلا تفعله، أو لقد كان وما كان فهذا إثم وعليه كفاره".

اللاغية هي نفس ذات اللغو، أي الهذيان من الكلام ومنه قوله تعالى: "لاَ تُسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَه"، واللاغيه واللواغي بمعنى اللغو مثل لاغيه الإبل بمعنى رغائها، ونباح الكلب لغو أيضا، قال الشاعر: وقلنا للدليل: أقم إليهم فلا تلغي لغيرهم كلاب.

18 المرجع نفسه، ص 410، 411.

ب- اصطلاحاً: يقول فخر الدين الرازي (ت 606 هـ):" إنه يدخل فيه كل ما كان حراماً أو مكروهاً أو كان مباحاً، وهو عبارة عن المعصية في القول والكلام وهو المباح الذي لا حاجة إليه واحتج بقوله تعالى:"لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم.."

واحتج آخرون بأن اللغو إنما سمّي لغواً لأنه يُلغى، وكل ما يقتضي الدين إلغاءه كان أولى باسم اللغو، فوجب أن يكون حراماً، ثم أن اللغو قد يكون كفراً وقد يكون كذباً لقوله تعالى: "لا تسمع فيها لاغيه"[19].

وقوله: " لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا"[20] لا يسمعون فيها أي كلام باطل مما هو معهود عند أهل الدنيا لأن الجنة دار جزاء لا دار عمل، وعلى هذا الوجه قال تعالى: "وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا "[21].

3- تلاقي المعنيين:

قال الشاعر:

عود لسانك قول الخير تحظ به إن اللسان لما عودت معتاد
موكل يتقاضى ما سننت له فاختر لنفسك وانظر كيف ترداد

انطلاقاً من هذين البيتين نرى أن اللسان يجمع بين الاثنين (اللغة واللغو) ففيها اللغة هي قول الخير أي الكلام المفيد، واللغو هو الكلام الخبيث الفاحش غير المرغوب فيه ولا ينبني منه أي عمل مفيد.

19 شرف الدين الراجحي، علم اللغة عند العرب، رأي علم اللغة الحديث، دار المعرفة الجاحظية، دط، سنة 2007 ص 15.

20 محمد فخر الدين الرازي، الفخر الرازي، تقديم فضيلة الشيخ خليل محي الدين الحسين، مج12، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1415هـ ص80.

21 الواقعة الآية 25.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التلاقي في أن كلا منهما قول سواء أكان طيبا أم خبيثا أم كفرا فضرب مثلا للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة والكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة فقال تعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ"[22].

فمصطلح " اللغة " لم يرد في القرآن الكريم ولو مرة واحدة، والذي أورده من اللغو على غير اتجاه اللغة فدلالة لفظ "اللغو" في القرآن الكريم هي اللغة غير المعقود عليها أي بناء من الطرفين المؤمن والمشرك قال تعالى: "لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ كِذَّابًا "[23].

وقال تعالى: "وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجَاهِلِين"[24] وهذا الطرف المؤمن، أمَّا الطرف الآخر ففي قوله تعالى: " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُون"[25].

وعليه فهل اللغو هو اللغة؟ والجواب بالنفي حتى وإن بدا التقارب بينهما في الأصوات، فقد استعمل "سيبويه" (ت 180 هـ) كلمة لغة في معنى اللهجة تأسّياً بأستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ) في مواضع متعددة من كتابه من ذلك ما ذكره في باب (هذا ما أجري مجرى ليس في بعض المواضع بلغة أهل الحجاز ثم يصير إلى أصله[26].

وأخذ شاعر آخر يقول:

---

22 الفرقان الآية 72.

23 اللسان (لغا) ط. صادر، بيروت 250/15.

24 فصلت الآية 26

25 اللسان العربي وقضايا العصر، مرجع سابق ص 10.

26 مريم 50، الشعراء 84،13، 195، النحل103مكرر، المائدة78،إبراهيم4،القصص34، الأحقاف 12، البلد 9، القيامة 16، الدخان 58، طه 27.

وربّ أســـــرابِ حجـــــيجٍ كُظّـــــمِ عـــن اللغـــا ورفـــثِ الـــتكلمِ[27]

ونحن نقول: لم نعثر على أصالة المصطلح (لغة) في المعاجم العربية كالـصحاح ولسان العرب والظاهر أنه من المصطلحات المختلفة صيغة ودلالة؛ فالذي يقول هـي لهجة والذي يقول هي أصوات والذي يقول هي عبارة المتكلم عن مقصوده هو دليـل على هذا الذي نرى، وعدم استخدام القرآن له يطرح علامة استفهام كبيـرة تتطلـب الوقوف والتأمل مع طرح السؤال هل مصطلح اللغة أصيل أم دخيل؟ فهو -إذاً- مـن المصطلحات التي لم تشهد دلالتها استقراراً معيناً بل حصل لها التطور السريع عبـر الزمن والتحول الكبير للدلالة إلى حد النقيض، أي من دلالة الكلمة إلى دلالـة اللـسان إلى دلالة الكلام (لغة ولغو)، فاللغة واللغو يجمع بينهما الكلام سواء أكان مفيداً أم غير مفيد.

خامساً: اللسان في القرآن

لما أقبل الإسلام تردد لفظ "اللسان" في نصوص وتراكيب كثيرة جـاء ذلـك فـي القرآن مكرراً خمس عشرة مرة[28] وليس سهلاً ولا ممكناً لأنّ المجال هنا لا يسمح لنا بيان دلالة "اللسان" أو "اللغة" أو "اللغو" أو"الكلام" وما يتصل بهذه المـصطلحات مـن تراكيب لا تخلو من إشارات غير لسانية كقوله تعالى على لسان زكرياء: " رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا "[29].

27 آل عمران 41.

28 محمد الصالح الضالع، علم الصوتيات عند ابن سينا، دار غريب للطباعـة والنـشر والتوزيـع، القاهرة، دط، ص 108.

29 ينظر، المرجع السابق، ص 109

أمَّا ما جاء في القرآن دالاً على ما له صلة بالعلامات اللسانية فهو كثير ومتنوع يحتاج إلى دراسة لسانية علمية مستقلة في ضوء ما وصلت إليه النظريات اللسانية المعاصرة من جهة وتقنيات التواصل وأدواته والمعلوماتية من جهة أخرى.

وأياً كان الأمر فإننا رأينا كيف أن العلماء تارة يعبّرون بجنس اللغة ومرة باللسان كما رأينا ذلك في قول يونس بن حبيب وهو يصف أول متكلم بالعربية غير أن ابن سلام الذي عقب على القول السابق يفهم من فحوى كلامه أن اللسان يعني لغة معينة (اللسان الذي نزل به القرآن) دون سائر اللغات؛ لأن هناك كتباً سماوية أخرى نزلت بغير اللسان الذي نزل به القرآن، وهذا ما سنفصل فيه:

اللسان: آلة النطق، اللسان: اللغة، اللسان: الكلام، اللسان: الأسلوب والبيان

1- **اللسان آلة النطق**: موقعه الفم فتحركه بالتحقيق ثماني عضلات[30]، وأبرزها عضلتان تأتيان من الزوائد السهمية العضلتان المسميان الآن الإبرية اللسانية (Styloglossus) اللتان عند الأذن يمنة ويسرة وتتصلان بجانبي اللسان فإذا تشنجتا عرضتاه والمسميان بالإبرية اللامية (Stylohyoid) والمسميان اللامية اللسانية (Hyogloglossus) والعضلات الذهنية اللسانية (Genioglossus)[31].

واللسان يستخدم للتعبير بمعنى العضو، وهو المعنى الذي يبيّن أول ما يبيّن في معاجم المفردات القرآنية، ولفظة (لسان) بمعنى عضو يدخل السياق المرتبط بالتنزيل القرآني وتاريخه، وقد ورد معنى اللسان آلة النطق في القرآن تسع مرات قال تعالى: "وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ

30 من القرآن إلى الفلسفة www.balagha.com/mosoa/quoran/xxow/f8w.htm

31 آل عمران 78.

وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ"[32].

1- قال تعالى: "مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً"[33].

2- وقال تعالى: "وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي"[34].

3- وقال تعالى: "إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ"[35].

4- وقال تعالى:" يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"[36]

5- وقال تعالى: "..وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُون"[37]

6- وقال تعالى: ".. يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِم.."[38].

7- وقال تعالى: "لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِه"[39].

8- وقال تعالى: "وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ"[40].

---

32 النساء 46.

33 طه الآية 27.

34 النور الآية 15.

35 النور الآية 24.

36 الشعراء الآية 13.

37 الفتح الآية 11.

38 القيامة الآية 16

39 البلد الآية 9.

40

قال "مجاهد" و"الشعبي" و"الحسن" و"قتاده" و"الربيع بن أنس" (يلوون ألسنتهم بالكتاب) يحرفونه، وهكذا روى البخاري عن ابن عباس أن اليهود يحرفون ويزيدون، وليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله إلا اليهود.

"وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلسِنَتِهِم وَطَعْنًا فِي الدِّينِ"أي بسبهم للنبي– صلى الله عليه وسلم–لأن قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم، وبذلك تنطق ألسنتهم بما في قلوبهم من خبث، لذلك نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن قول "راعنا"سدّا لذريعة اليهود فقال:"يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا.."[41].

"واحلل عقدة من لساني" قال الحسن البصري:"حل عقدة واحدة، ولو سأل موسى أكثر من ذلك لأعطاه"، وقال ابن عباس:"شكا موسى إلى ربه أن يعينه بأخيه هارون ليكون له درءاً ويتكلم عنه مما لا يفصح به لسانه فآتاه سؤاله فحل عقدة من لسانه كي يفقه بنو إسرائيل كلامه"[42].

"إذ تلقونه بألسنتكم"قال مجاهد وسعيد بن جبير: أي يرويه بعضكم عن بعض، وفي صحيح البخاري عن عائشة أنها كانت تقرؤها كذلك وتقول هو من ولق اللسان يعني الكذب الذي يستمر صاحبه عليه، قال ابن مليكه: "هي اعلم به من غيرها"[43]

" يوم تشهد ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون"عن أبي سعيد عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال:"إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعلمه فيجحد ويخاصم فيحلفون ثم يصمتهم الله فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ثم يدخلهم النار "[44].

41 البقرة الآية 104.

42 ينظر ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، دار التقوى للتراث، طبعة جديدة مصححة 2006، الجزء الأول ص405.

43 ينظر ابن كثير ص 158.

44 ينظر ابن كثير ص 135.

"ويضيق صدري ولا ينطق لساني فأرسل إلى هارون" لا ينطلق لسانه بسبب العقدة التي فيه.

"يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم" أي طلب الاستغفار، وكأن ألسنتهم تنطق بما ليس في قلوبهم وهنا يتعطل اللسان على وظيفته ويصبح سائباً خارجاً عن دائرة محوره.

"لا تحرك به لسانك لتعجل به" أي بالقرآن هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله – صلى الله عليه وسلم – في كيفية تلقيه الوحي من الملك؛ فالحالة الأولى جمعه في صدره والثانية تلاوته والثالثة تفسيره وإيضاح معناه، وبهذا يكون اللسان مقيداً بقوانين ضابطة للنطق بما ينفع وإلا زلّ وحاد عن الصواب.

"ولسانا وشفتين" لساناً؛ أي ينطق به فيعبّر عما في ضميره، وشفتين يستعين بهما على الكلام، وفي هذا يرى علماء الأصوات أن اللسان يتدخل في إخراج سبعة عشر صوتا: الأسلية والنطعية واللثوية... الخ.

وبهذا يقول الماوردي: "اللسان عنوان الإنسان يترجم عن مجهوله ويبرهن عن محصوله فيلزم أن يكون بتهذيب ألفاظه حرياً وبتقويم لسانه جلياً وفي هذا مر بنا قول الشاعر:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وأصل اللسان هو عضو الذوق والنطق الموجود في الفم والنطق من المنطق مشتق من نطق ينطق نطقاً، والنطق فعل من أفعال النفس الإنسانية، وهذا الفعل نوعان: فكري ولفظي؛فالنطق اللفظي هو أمر جسماني محسوس،والنطق الفكري أمر روحاني معقول فاللسان بهذين الفعلين له الدور الفعال في عملية التلفظ؛ إذ تقوم عملية

تبادل الأصوات بين المتكلم باللسان والسامع بالأذن،كما أن الصوت المعبر عن المعنى يندفع فيه الهواء من الرئتين ويقطعه اللسان والحنك إلى حروف تتألف منها الألفاظ[45].

2- **اللسان** "**اللغة**": ن المفهوم العام الذي عُرف للفظ اللغة – بحسب رأينا – ما عرف في الحقيقة إلا بعد نهاية القرن الثاني للهجرة، وأن الأصل في الدلالة عليه هو ما استعمله القرآن الكريم، لا يوجد فيه كلمة أخرى لهذا المدلول غير (اللسان) في الشعر الجاهلي والإسلامي وما نقل من كلام النحويين قبل وفاة سيبويه، وما ألف كلّه في العربية والفقه والحديث وغير ذلك من العلوم الإسلامية لا يوجد فيها إلا لفظ "اللسان"، وكلما استعملت كلمة "لغة" فيها فهي للدلالة على الكيفية الخاصة التي يمتاز بها قوم عن قوم في تأدية لفظ معين، وهذا ما أدى – حتماً - إلى الاشتراك الدلالي بين اللغة واللسان.

قال تعالى: "لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ"[46].

قال تعالى:".. لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ"[47].

قال تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ"[48].

قال تعالى:"وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ"[49].

---

45 حسن ظاظا، مرجع سابق، ص30، التي هي أصوات مجموعة لها هجاء وهي تظهر في اللسان الذي هو عضو في الجسد، واللسان مع بقية الأعضاء ينتج الحروف اللفظية التي هي أصوات تحدث في الحلقوم والحنك وبين اللسان والشفتين عند خروج النفس من الرئة.

46 المائدة 78.

47 النحل 103.

48 الروم 22.

49 الأحقاف 12.

قال تعالى: " فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا"[50].

قال تعالى: " فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ"[51].

فالآية الأولى الدالة يخبر الله تعالى فيها أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل بلسان داوود وعيسى – عليهما السلام – أي باللغة التي كان يفهمها بنو إسرائيل، واللسان هنا هو اللغة، وفي الآية الثانية بمعنى أن القرآن الكريم جاء بلغة عربية على لسان نبي أمّي عربي من قوم عرب ومن ألحدوا ولم يتبعوه في دينه ليسوا عرباً وإنما هم أعاجم، واختلاف ألسنتكم في الآية الثالثة يعني اللغات فهؤلاء بلغة العرب وهؤلاء روم وهؤلاء فرس وهؤلاء هنود وهؤلاء صقالبة وهؤلاء أتراك وأكراد وأرمن... الخ، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله من اختلاف لغات بني آدم؛ ومن سنة الله ألاّ يتشابه البشر وألا يكونوا نسخة واحدة وعلى هيئة واحدة فلا بدَّ من فارق بينهم فلا يجمعهم إلا كلمة التوحيد؛ لأن الإله واحد والدين واحد والرسول خاتم الأنبياء واحد. وفي الآية الرابعة أن الكتاب نزل بلغة عربية فصيحة واضحة منها البشارة والنذارة[52]. أمَّا في الآية الخامسة فالقرآن يسره الله بلغة محمد وهي اللغة الفصيحة المبينة الكاملة. وفي الآية الأخيرة أن الله يسّر هذا القرآن بلغة محمد المربي الذي يستطيع أن يبلغ بلسانه القويم الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأعلاها.

اللغة نظام من خلاله تدرس البنية انطلاقاً من الكيان، وهي مؤسسة اجتماعية ذات وجهين فردي "الكلام" واجتماعي "اللسان"، وإن الوظيفة الأساسية للغة هي أداة للتعبير ووسيلة للتبليغ، ووسط للتواصل بين البشر؛ ومن هذا تتعدد وظائف اللغة[53].

---

50 مريم 97.

51 الدخان 58.

52 ابن كثير ص 171.

53 فتح الله الكراميني، المرجع اللغوي الوافي في التعبير الإبداعي والوظيفي للتعليم العام الجامعي دار الكتاب الجامعي، العين، الإمارات،ط1، 1427هـ 2007م ص 41، 42.

1- الوظيفة الوصفية: وهي نقل أخبار أو حقائق من المتكلم إلى السامع لقوله تعالى السابق: "فإنما يسرناه بلسانك.."

2- الوظيفة التفكيرية: وهنا تكمن الوظيفة في نقل الأفكار حتى بين لغة (الحيوان) والإنسان، وهذا ما جرى بين سليمان -عليه السلام- والنمل وبينه والهدهد لقوله تعالى: " فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَان".

وقد تستعمل اللغة لإخفاء الفكر، وهذا الاستعمال في لغة السياسيين وفي لغة الخارجين عن القانون وفي الكلام المحرم اجتماعياً بدليل قوله تعالى: "وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القَوْلِ"[54].

3- الوظيفة الاتصالية: يُعدُّ معظم علماء اللغة هذه الوظيفة الرئيسة للغة بوصفها أداة لنقل الأخبار والمعلومات والخبرات البشرية والعلاقات الإنسانية، فهي التي جعلت الاتصال ممكناً بين البشر، إذ الاتصال مهم جداً لأنه ينقل إلينا المعاني، فاللغة تسمح لمتكلميها بأن يتكلموا عن أي شيء يشعرون به أو يريدون الحديث عنه[55]، لقوله تعالى: "وَفِي ذَلِكَ اخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُم وَأَلْوَانِكُم".

4- الوظيفة الإفهامية: نستطيع أن نعرف وظيفة الفهم إذا حللنا كمية المعلومات التي تتضمنها جملة معينة، ويتضح من هذا التحليل أن في كل كلمة ينطقها الإنسان فائضاً؛ أي إنّه من الممكن حذف بعض أجزاء الكلمات دون أن يعطل ذلك في مقدرة السامع على فهم الرسالة، وهذا من خلال اللغة المختصرة في البرقيات وأحاديث الهاتف والأحاديث التي تجري في وسط الضجيج، وتعتمد فكرة الفائض على نظرية

54 عليا عزت عياد، معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، المكتبية الأكاديمية، القاهرة، طبعة جديدة ومنقحة، سنة 1994 ص 158.

55 المرجع السابق ص 82.

الاحتمالات عند تطبيقها على الجملة وبوجه خاص على احتمال وقوع الكلمة في سياق لغوي معين[56].

3- **اللسان "الكلام"**:

الكلام في أصل اللغة هو "الأصوات المفيدة" وهو اسم جنس يقع على القليل والكثير؛ فالكلمة تقع على الحرف الواحد من حروف الهجاء، وتقع على لفظة مؤلفة من مجموعة حروف ذات معنى، وتقع على قصيدة بكاملها وخطبة بأسرها " تلك كلمة هو قائلها "،فألفاظ اللغة كلها كلام من حيث إنها منطوق (مبنى) يعبّر عن مفهوم (معنى) وهذا المنطوق هو"الكلام"يمكن تصنيفه إلى مجالات دلالية (Semanties fields) بحسب المعاني التي يعبّر عنها، فنجد أن هناك ألفاظاً تدلُّ على معنى الرؤية مثل: نظر، رأى، حدق، رمق، حدج.. وهكذا يمكن أن تصنف الثروة اللفظية بحسب المعاني إلى مجالات دلالية؛ ومن بين تلك المجالات المجال الذي تدلُّ ألفاظه على الحدث الكلامي نفسه مثل: قال، كلم، نطق، لفظ، وهذا وارد في الآيات الآتية[57]:

- "فَمَا خَطْبُكُم أَيُّها المُرْسَلُون"[58].
- "وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيما"[59].
- "قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ"[60].
- "مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد"[61].

56 زيد كامل الخوسيكي،لسانيات من اللسانيات،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 2006،ص19.

57 محمد محمد دواود، الدلالة والكلام(دراسة تأصيلية لألفاظ الكلام في العربية المعاصرة في إطار المناهج الحديثة)، دار النشر والتوزيع، القاهرة، كلية التربية، جامعة قناة السويس 2002، ص31.

58 الحجر الآية 57.

59 النساء الآية 164.

60 فصلت الآية 21.

61 ق الآية 18.

أي إنَّ هذه الألفاظ منطوقها كلام ومفهومها كلام أيضاً.

قال تعالى: "وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُم الكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الحُسْنَى"[62].

قال تعالى: "وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُم الكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَام.."[63].

قال تعالى: "فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَاد"[64].

قال تعالى: "وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا"[65].

قال تعالى: "وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ"[66].

قال تعالى: "إِنْ يَثْقَفُوكُم يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوء وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُون"[67].

فالآية الأولى دلّت أن ألسنتهم نطقت النطق الخطأ البعيد عن منطق القول فكان الكذب؛أي أن الكذب صفة لهذه الألسنة فنمقوا الكلام وسمحوا لألسنتهم أن تخرج الكلم عن مواضعه.

أمَّا الدلالة في الآية الثانية فهي نفسها ما رمت إليه الأولى ولكن بوصفين:

الوصف الأول: ما نمقته ألسنتهم وزينته من كلام، والوصف الثاني ما وصفت به ألسنتهم نحو الله؛ أي لا تطاوعوا ما تفوهت به ألسنتكم هذا حلال وهذا حرام. وأمَّا في الآية الثالثة فتكون دلالة اللفظ أنهم تكلموا كلاماً فصيحاً بليغاً عالياً وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة، وفي حقيقة الأمر أنهم يكذبون لذلك أعطى أقوى

62 النحل الآية 62.

63 النحل من الآية 116.

64 الأحزاب من الآية 19.

65 مريم الآية 50.

66 الشعراء الآية 84.

67 الممتحنة الآية 2.

لفظتين في الدلالة (سلقوكم) و(حِداد) وفي قوله: "وجعلنا لهم لسان صـــدق عليّـــا" أي كلاماً موزوناً لأن الملل والأديان جميعها يثنون عليهم ويمدحونهم صلوات الله علـــيهم أجمعين؛ وكما ذكر ابن كثير[68]. وفي الآية ما قبل الأخيرة اجعل لي ذكرا جميلا أذكر به ويقتدى به في الخير وهذا ما يذيعه الناس من كلام حسن وينتقل عبر الأجيال.

وأمَّا في الآية الأخيرة فلو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقـــال والفعال[69].

كل وسيلة للتخاطب تعتمد على مجموعة من العلامات العامة المـــصطلح عليهـــا بالكلام سواء أكانت علامات صوتية أم غير صوتية، على أن المكانة التـــي يـــشغلها الكلام الصوتي المنطوق به في حياة الإنسان وحضارته، وجعلت لفظة "كلام" مقصورة في الاستعمال على التفاهم الصوتي وحده[70]، وتظهر لنا وظيفة اللسان بمعنى "الكـــلام" من خلال أنه وسيلة تفاهم خاصة بالإنسان وغير غريزية فيه، تمكنه من تبادل الأفكار والوجدانية والرغائب بوساطة رموز صوتية، اصطلاحية على وجه التغليب والتعمـــيم تصدرها أعضاء النطق إرادياً، والمتكلم يستعمل هذه الوسيلة ليخرج بها شيئاً داخليـــاً هو الفكرة، ولكن هذا نفسه دليل قاطع على أن اللفظ شيء والفكر شيء آخر[71].

وهناك وظيفة إبلاغية تولدت من العلاقة بين النطق والتفكير، فوظيفة الإبلاغ منذ بداية نشأة الكلام الإنساني وإدراك العلاقة الذهنية بين الصوت وما يشير إليه، وكذلك وظيفة أداة اللسان وهي الفصاحة، فيكون بذلك أداة الكلم الفصيح، والكـــلام أداء للأصـــوات، وبهذا يمكن أن تتضح عملية الخطاب في بناء الخطاب التواصلي، وعليه فإن الخطاب

68 تفسير القرآن العظيم ص364.

69 المصدر نفسه ص 376.

70 حسن ظاظا مرجع سابق، ص 28-30.

71 نفسه ص 90.

يجري بأصوات منظمة وفي أداء، إذ للّسان (أي الكلام) قواعد وقوانين ثابتة ضـــابطة للأصوات في عملية التعبير، ويتلخص هذا كله في الوظيفة التعبيرية[72].

4- **اللسان "البيان"**:

البيان لغة: الفصاحة واللسن وكلام بين فصيح، والبيان والإيضاح مع ذكاء والبـــيّن من الرجال الفصيح، فلدى ابن شميل: البين من الرجال الـــسمح اللـــسان، الفـــصيح الظريف العالي الكلام، وفلان أبين من فلان أي أفصح منه، وأوضح كلاماً ورجل بين فصيح، والجمع أبْيِناء وقد صحت الباء لسكون ما قبلها وأنشد شمر:

قـــد ينطـــقُ الـــشعرَ الغبـــيُّ، ويلتئـــي على البِّينِ الـــسّقّاكِ وهـــو خطيـــبُ

قوله يلتئي أي يبطئ من اللأي وهو الإبطاء.

وروى ابن عباس عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قـــال: "إن مـــن البيـــان لسحرا وإن من الشعر لحكما " قال: البيان إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهـــم وذكاء القلب مع اللِّسن وأصله الكشف والظهور وقيل معناه: إن الرجل يكـــون عليـــه الحق وهو أقوم بحجته من خصمه فيقلب الحق ببيانه إلى نفسه؛ لأن معنى السحر قلب الشيء في عين الإنسان، وقيل معناه: إنه يبلغ من بيان ذي الفصاحة أنه يمدح الإنسان فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله وحبه، ثم يذمّه فيصدق فيه حتى يـــصرف القلوب إلى قوله وبغضه[73]، قال الشاعر:

هذا مجاج النحـــل إن شـــئت تمدحـــه وإن شئت قلـــت ذا قـــيء الزنـــانير
مدحا وذما ومـــا جـــاوزت وصـــفهما سحر البيان يرى الظلمـــاء كـــالنور

72 نفسه ص 25.

73 ابن منظور، لسان العرب، مادة(ب ي ن)، دار صادر، لبنان، بيروت طبعة جديدة ومنقحة، ســـنة 2000، ص 199/2.

والبيان اصطلاحاً: هو التعمق في النطق والتفاصح وإظهار التقدم على الناس وكأنه نوع من العجب والكبر، قال الزجاج في قوله تعالى: "خلق الإنسان علمه البيان"[74] يجوز في اللغة أن يكون الإنسان اسماً لجنس الناس جميعاً، ويكون على هذا علمه البيان جعله مميّزاً حتى انفصل الإنسان ببيانه وتمييزه من جميع الحيوان؛ فمدار الأمر والغاية التي يجر إليها القائل والسامع إنما الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع[75].

قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيم"[76].

قال تعالى: ".. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين"[77].

وقال أيضاً: "وَأَخِي هَارُون هُو أَفْصَحُ مِنّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا"[78].

وقال: "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُون إِنَّمَا يُعَلِّمُه بَشَرٌ لِسَانَ الّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِين"[79].

في الآية الأولى من لطفه تعالى بخلقه أن يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، كما روى الإمام أحمد قال رسول الله (ص): "لم يبعث الله- عز وجل- نبياً إلا بلغة قومه "فيضل الله من يشاء بعد البيان وإقامة الحق عليهم

74 الرحمان الآيتان، 3، 4.

75 الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق درويش جويدي، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت، ط2، 1421هـ 2000م مجلد 1، 3 ص 58،59.

76 إبراهيم الآية 4.

77 الشعراء الآية 195.

78 القصص الآية 34.

79 النحل الآية 103.

عن وجه الهدى،"ويهدي من يشاء" إلى الحق[80]، وفي قوله"بلسان عربي مبيّن "أن القرآن الذي أنزلناه إليك بلسانك العربي الفصيح والكلام موجه للرسول (ص) الكامل الشامل، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً، قاطعاً للعذر، مقيماً للحجة، دليلاً إلى المحبة.

ومعنى قوله في الآية الثالثة أن موسى - عليه السلام - كان في لسانه لثغة بسبب تناوله الجمرة في بيت فرعون حين خيّر بينها وبين التمرة أو الدرّة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه فحصل فيه شدة في التعبير.

والمقصد في الآية الرابعة أي إنَّ القرآن هو اللسان العربي المبين، فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة، الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أُرسِل، كيف يتعلم من رجل أعجمي بعيد عن هذا اللسان العربي المبين!؟[81].

أظهر الباقلاني في كتابه "الفرق بين كلام الله وكلام البشر": "القرآن على منازل البيان من تعديل النظم وسلامته وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان ووقوعه في النفس موقع القبول "[82].

يقول الدكتور "جعفر دك الباب": "وصف القرآن في التنزيل بأنه عربي يعني أنه أنزل بلسان جميع العرب، لا بواحدة من اللغات العربية"[83].

وهذا برأيي لا يعني أنه مزيج من لغات العرب؛ لأن المزيج يفيد الذوبان ولا يوضح الإبانة التي قام على أساسها اللسان العربي فكأن اللغات ذاب بعضها في بعض والحقيقة أنها لم تذب بل بقيت محافظة على شخصيتها في واقع حياتها، إنَّما الذي

80 ابن كثير ص 566.

81 ينظر، مرجع سابق ص636.

82 عبد العاطي محمد شبلي، الخطاب والإعجاز في القرآن، المكتب الجامعي الحديث،ط1، 2006، ص 145.

83 عمار ساسي، مرجع سابق، ص

حصل هو أن القرآن انتقى أبنيتها ووظفها لأداء المعنى؛ فمن خلال عبارة (لسان عربي مبين) تحدد الوظيفة الأساسية للسان العربي وهي "الإبانة"، في حين عبارة (اللغة الفصحى) هي صفة لذات اللغة لا وظيفة لها، فاللسان العربي هو زبدة العرب ولسان الحال والمقال والصحيفة والمجال والأساس فيه هو (الإبانة) لا (الفصاحة) وإن كانت الفصاحة متضمنة في الإبانة.

اللسان العربي اليوم هو الأداة الجامعة للعرب نطقاً وكتابة (بلسان عربي مبين)، أمَّا ما يحصل فيه التمايز والتباين نطقا فقط فهو اللغة، ومن مميّزات اللهجات أنها تختلف عن اللسان في الأصوات من إعلال وإبدال وقلب وإدغام وإمالة.. الخ، واللغة في مقابل اللسان العربي هذا الذي وجدناه في تراثنا اللغوي حين قالوا (لغات العرب) والمقصود هنا هو انتحاء العرب في استعمال اللغة.

جملة (اللسان العربي المبين) هي عبارة وظيفية للسان؛ إذ الوظيفة الأساسية له هي الإبانة في حين اللغة العربية الفصحى هي صفة للغة إذا كانت الأولى أفصح وأبين على الدلالة[84].

ومن وظائف اللسان في البيان كونه أداة البيان ويظهر هذا في قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَومِه لِيُبين لَهُم.. "الآية السابقة؛ لأن مدار الأمر على البيان والتبيين وعلى الإفهام والتفهم، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، وكذلك الفاهم والمتفهّم والمعلّم والمتعلم وضرب الله مثلا لعيٍّ اللسان ورداءة البيان، قال تعالى: "أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبِين"[85]، ولذلك قال النمر بن تولب:

وكلُّ خليلٍ، عليه الرِّعا ث والحُبُلَاتُ كَذوبٌ مَلِقْ[86]

84 ينظر المرجع السابق ص 108.

85 الزخرف الآية 18.

86 اللسان (رعث)، المصدر السابق 173/6.

ومن هنا تتجلى الوظيفة الأساسية للسان العربي "وهذا لسان عربي مبين" والإبانة هنا هي القدرة والسعة والمرونة والعالمية والاقتصاد والثبات والصلاحية لكل زمان ومكان، ولو حاولت العربية التعبير عن معنى غير موجود في مجتمعها لعجزت ولاضطرت إلى التعبير عنه ببنية تركيبية لا بكلمة فتخرج بذلك عن الإبانة والإفصاح؛ لأن الفصاحة تقتضي الإبانة عن المعنى الواحد باللفظ الواحد،.. وهو مشكّل من مجموع لغات عربية فصيحة مختار على أساس الإبانة؛ فالإبانة عن المعنى هي الشرط الأساسي في اللسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم، وبناء على كثير من النصوص نرى أن القرآن الكريم استوفى لسان العرب كله، وما لم يستعمله من كلامهم فهو لغياب الإبانة فيه.

وفي هذا الصدد يشير الدكتور عمار ساسي إلى أن مبدأ نكران الترادف في القرآن الكريم يرفض أن تكون الفصاحة هي الإبانة، والمتأمل في هذه الكلمات يلحظ أنها ألفاظ وليست تراكيب تمس البنية اللغوية الثابتة، والكلمات هذه بين أسماء وأفعال، والكلمة كما يعرفها الإمام "الزمخشري" هي اللفظ الدال على معنى مفرد بالوضع، وهذا أمر مهم يجرنا إلى وقفة تأملية أخرى مع قوله تعالى: "بلسان عربي مبين".
بالسؤال الآتي: "ماذا يراد باللسان هنا هل هو الكلمات: أسماء وأفعال أو هو التراكيب والبنى التي تحكم هذه الأسماء وهذه الأفعال والحروف في أثناء عملية الكلام ؟.

إن القصد الأساسي باللسان العربي هنا هو البنية التركيبية للعربية وهي الخاصية المميّزة التي تميّز بها الألسن واللغات بعضها من بعض، أمَّا الأسماء والأفعال فقد تتزايد بحسب متطلبات العصر وتطوراته، فالبنى التركيبية ثابتة وما عداها فهي المساحة التي تدخل منها اللغات الأخرى، وهذا لا يتناقض مع عبارة الأسماء ثابتة والأفعال متجددة؛ لأنها الهيكل العظمي للسان؛ إذ إنَّ أدنى تغيير أو تبديل في هذه البنى يعرض اللسان للتلف والفساد[87].

87 ينظر عمار ساسي، مرجع سابق ص 121، 124

خاتمة:

بعد هذه الدراسة الحذرة خلص البحث إلى مايأتي:

1- لاشك أن اللسان العربي لسان لغة ولسان كلام ولسان بيان ولسان بنية وتركيب، وأن بذور البقاء فيه محكمة بدقة؛ولأنه الركيزة والمقوم المادي لكل لغة.

2- ومن عجائب هذا اللسان هو خروجه من رحم لغات القبائل العربية الفصيحة وعددها أكبر من أن يحصى بحركة نشأته وتشكله إلى أن نزل القرآن الكريم فأعاد تشكيل هذا اللسان وصياغته الصياغة المثلى والحقيقية.

3- وجدنا أنْ لا فائدة من طرح قضية ترقية العربية وتطويرها، ولا المصطلح العلمي وأزمته، ولا موضوع العربية والشابكة، ولا العربية والتحديات المستقبلية من وضوح للرؤية العلمية في الفهم والمنهج، وفي تثبيت الخصائص المميّزة في اللسان العربي بأسرارها ومقاصدها، وإلا كيف نفسر هذا القصور والعجز هنا اليوم نحن أهل هذا اللسان وكيف نحلل هذا التحدي وهذه الهيمنة الأعجمية اليوم ؟.

4- إن التنزيل والقرآن هما اللذان منحا اللسان العربي نظامه الأساسي المستقل بين الألسنة الأخرى من حيث إنَّه معروف لدينا في صيغته المثلى وإطاره المحيط.

5- لا وجود لمشكلة للمصطلح في "اللسان العربي" بل إن حقيقة المشكلة هي في الرغبة والمنهج وحسن النية والقصد.

6- اللسان العربي أكبر من الحاسوب، والحاسوب عاجز عن استيعاب اللسان العربي في خصائصه كلها؛ إذ لو أننا رجعنا إلى ذلك الكم الهائل في نظام "التقاليب" الذي عرفه معجم العين لتفجر الحاسوب.

المصادر والمراجع

1- تمام (حسان)، الخلاصة النحوية، عالم الكتاب، ط1، 2000 م.

2- الجاحظ (عمرو بن بحر)، البيان والتبيين، تحقيق درويش جويدي، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت، ط2، 1421هـ - 2000م مجلد 1، 3.

3- الخشّ (سليمان) مقتطف من نص أعد لمسابقة الدخول للمركز الوطني لتكوين الإطارات بالجزائر دورة 1992.

4- الخوسيكي(زيد كامل)، لسانيات من اللسانيات، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية 2006.

5- داود (محمد محمد)، الدلالة والكلام (دراسة تأصيلية لألفاظ الكلام في العربية المعاصرة في إطار المناهج الحديثة)، دار النشر والتوزيع، القاهرة، كلية التربية، جامعة قناة السويس، 2002.

6- الراجحي (شرف الدين)، علم اللغة عند العرب ــ رأي علم اللغة الحديث ــ دار المعرفة الجامعية، دط، سنة 2007 .

7- الرازي (محمد فخر الدين)، تقديم فضيلة الشيخ خليل محي الدين الحسين، مج12، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1415هـ.

8- الزمخشري(جار الله)، أساس البلاغة، مكتبة لبنان، ناشرون، ط1، 1998 مادة (ل.غ.و).

9- ساسي (عمار)، اللسان العربي وقضايا العصر، رؤية علمية في الفهم والمنهج والخصائص والتعليم والتحليل)، عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع، إربد الأردن، 2007.

10- الضالع (محمد الصالح)، علم الصوتيات عند ابن سينا، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، دط، دت.

11- ظاظا (حسن)، اللسان والإنسان، دار القلم، دمشق الدار الشامية، بيروت 1410هـ – 1990م.

12- عياد عليا (عزت)، معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، المكتبية الأكاديمية، القاهرة، طبعة جديدة ومنقحة، سنة 1994.

13- ابن كثير(عماد الدين)، تفسير القرآن الكريم، دار التقوى للتراث، طبعة جديدة مصححة 2006، الجزء الأول.

14- الكراميني (فتح الله)، المرجع اللغوي الوافي في التعبيرالإبداعي والوظيفي للتعليم العام الجامعي، دار الكتاب الجامعي، العين، الإمارات،ط1، 1427هـ – 2007م.

15- مرتاض (عبد الجليل)، اللغة والتواصل، دار هومه للنشر والتوزيع، دط، 2007.

16- ابن منظور (جمال الدين)، لسان العرب، مادة (ب ي ن)، دار صادر، لبنان، بيروت طبعة جديدة ومنقحة، سنة 2000.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2010/12/15.